تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"

د. هشام شوقي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على جانب من جوانب تفسير العلامة ابن باديس، باعتباره تفسيرا أيقظ ضمير المجتمع الجزائري وأخرجه من سباته إبان فترة الاستعمار، وذلك أن ابن باديس كانت له طريقة بديعة وعبقرية فذّة في تفسيره، حيث خرج عما كان شائعا في زمانه من جعل القرآن الكريم مجرّد كتاب يتلى في المآتم وحلقات الذّكر في المساجد وإذا فُسِّرَ للنّاس فُسِّرَت بعض ألفاظه ومعانيه العامة، وذهب إلى أن هذا الكتاب العزيز كتاب حيٌّ يعالج كلّ زمان مهما كانت أمراضه ومشاكله، بشرط حسن تدبّره وفهمه لاستخراج العلاج منه، فانطلق من هذا المبدأ وراح يشخّص أمراض مجتمعه في زمانه ثم يبحث لها عن علاج مناسب في آيات القرآن الكريم ويعطي هذا العلاج أثناء تفسيره للآية، فخرج تفسيره غنيًّا بالمواضع التي نزّل فيها آيات من القرآن الكريم على واقعه المعاش فوصف الداء والدواء من خلالها، وهذا ما أثار إعجابي بهذا التفسير فأردت أن أجمع هذه المواضع، وأبيّن كيف عالج واقعه بتنزيل الآيات عليها، فجاء المقال لتحقيق هذا الغرض .

Summary:

This article aims to shed light on one aspect of interpreting the Quran by the scholar Ibn Badis, , Ibn Badis considered this divine book to solve all sorts of problems, at all times, regardless of their nature, a scholar must come to deeply understand the meaning from the verses of the Quran as well as pondering upon them to extract solutions to problems as they arise. Ibn Badis diagnosed the spiritual diseases that were spread in his community in his time,.

Ibn Badis diagnosed the the spiritual diseases of his time and found the cures from the Quran. gather and collect examples of this types of interpretation. Thus, this article came to serve the purpose

مقدمة:

يعدّ الإمام ابن باديس من أبرز علماء الجزائر الذين كتب لهم القبول في قطرها عبر التاريخ، وذلك أنه عاش في أصعب مرحلة مرت بهذا البلد وهي: مرحلة الاستعمار الفرنسي، فكان ابن باديس كالجدار الحديدي لهذا الاستعمار، حيث اشتغل بتعليم الشعب الجزائري وربطه بدينه ولغته ووطنه حتى لا تذهب هويّته التي سعى الاستعمار الفرنسي لطمسها، كما حارب ابن باديس الطرق الصوفية وما فيها من بدعيّات وشركيّات شاعت في عصره، وقد رأى –رحمه الله – أن السبيل لإصلاح الواقع الأليم الذي يمرّ به بلده هو التفرّغ لتعليم الناس الدّين الصّحيح من منبعه الصّافي وهو القرآن والسنة، فتفرّغ للتّدريس في العلوم المتعلّقة بهذين المصدرين وأبدع في ذلك .

ومن الدروس التي كان يلقيها؛ درس تفسير القرآن الكريم، هذا الدّرس الذي كانت له ميزة لم تكن لغيره من دروس ابن باديس، سواء من ناحية إقبال الناس عليه أو من ناحية تأثّرهم به، وهذا كلّه يعود لطريقته البديعة في التفسير، حيث وجد ابن باديس في القرآن الكريم الدّواء المناسب لعلاج واقع أمته، فراح يغوص في معانيه ويعالج المجتمع بهذا الدواء الشافي، فظهرت عبقريته في التفسير، والتي تمثلت في تنزيل آيات القرآن الكريم على الواقع المعاش ومن ثم محاولة إيجاد العلاج المناسب للأمراض التي يئن منها المجتمع، فأخرج لنا ابن باديس تفسيرا عصريا وكتابا حيا يخاطب ضمائر الناس وقلوبهم، فأيقظ النائم ونبه الغافل .

فمن هو الإمام ابن باديس؟ وكيف كانت طريقته في التفسير؟ وما هي أهم قضايا المجتمع التي عالجها من خلال آي الذكر الحكيم؟ كل هذه الأسئلة سنحاول الإجابة عليها من خلال المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: تعريف بالإمام ابن باديس وتفسيره، مع مقدمة حول مسألة "تنزيل الآيات الواقع" .

يعتبر الإمام عبد الحميد بن باديس المعلّم والمربّي الأول للشعب الجزائري إبان فترة الاستعمار الفرنسي، كما أن تفسيره يعدّ من التفاسير المعاصرة القيّمة التي كانت كالمصباح الذي يضيء للناس طريقهم المظلم في ذلك الوقت، وهذا من خلال براعته في التفسير، وفيما يلي ترجمة مختصرة لهذا الإمام وتعريف بتفسيره ثم مقدمة مختصرة حول مسألة ""تنزيل الآيات الواقع"، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: ترجمة للإمام ابن باديس:

أولا: مولده ونسبه:

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة، سنة: 1307هـ، الموافق لليلة الجمعة 4 ديسمبر عام 1889م **والداه:** هو السيد محمد المصطفى بن مكي، **وأمّه:** هي زهيرة بنت علي ابن جلول.

وأسرة ابن باديس مشهورة في شمالي إفريقيا، نبغ فيها عظماء الرجال، وكانت تجمع بين العلم والجاه، حيث تنحدر هذه الأسرة من العائلة الصنهاجيّة، والتي كان منها الأمير زيري بن منّاد ابن منقوش أمير صنهاجة التليّة، ثم ابنه يوسف بن زيري الملقب (بولغين)، الذي استخلفه المعز لدين الله الفاطمي على كامل المغرب بعد ارتحاله إلى مصر. ومن رجال هذه الأسرة المشهورين: المعز لدين الله بن باديس، الذي قاوم البدعة ودحرها، ونصر السنة وأظهرها، فأزال مذهب الشيعة الباطنية، وأعلن مذهب أهل السنة والجماعة مذهبًا للدولة، وانفصل عن الدولة الفاطمية بمصر[1].

ثانيا: نشأته:

نشأ الإمام بن باديس في أحضان تلك الأسرة العريقة في العلم والجاه، وكان والده حريصا على تربيته تربية إسلامية، فلم يُدخلْه المدارس الفرنسية كبقية أبناء

[1]- آثار ابن باديس، جمع: عمار طالبي، ج1، ص: 72- 73 ، والإمام المجدد ابن باديس والتصوف، للدكتور: أحمد محمود الجزار، ص: 16 .

العائلات المشهورة، بل أرسل به إلى الشيخ المقرئ محمد بن المدّاسي، فحفظ عليه القرآن وتجويده، وعمره لم يتجاوز الثالثة عشر سنة، ثم وجهه إلى الشيخ حمدان الونيسي، فتلقى منه العلوم ومكارم الأخلاق، يقول ابن باديس في بيان فضل أسرته ومشايخه عليه: " إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي ربَّاني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة اتّبعها ومشربا أرده وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني ... ثم لمشائخي الذي علموني العلم وخطّوا لي مناهج العمل في الحياة و لم يبخسوا استعدادي حقّه" [1] .

ثالثا: رحلاته في طلب العلم:

بعد أن استوعب الشيخ بن باديس غالب العلوم التي وجدها تُلقَى في بلده، عزم على مواصلة الطلب والتّحصيل، وبتشجيع من والده؛ ارتحل إلى تونس متتبعًا ينابيع العلم والمعرفة، فقصد جامع الزيتونة وتلقّى العلم على المبرّزين من علمائها، أمثال الشيخ: محمد النخلي، والشيخ: محمد الطاهر بن عاشور، وغيرهم طيلة أربع سنوات إلى أن أجازوه للتدريس، فمكث بعد تخرّجه سنة أخرى للتدريس فيها، ثم عاد سنة: 1912م إلى الجزائر لنشر علمه وتنوير شعبه، فجلس يدرّس في الجامع الكبير بقسنطينة ثم تحول بعد ذلك الجامع الأخضر . وفي موسم الحج لعام 1913م قصد مكة لأداء فريضة الحج، فالتقى هناك بعدة علماء؛ كشيخه: حمدان الونيسي والبشير الإبراهيمي وغيرهم، كما ألقى عدة دروس في المسجد النبوي، وأثناء عودته إلى الجزائر طاف بعدّة بلدان عربية، فزار سوريا ومصر، التي التقى فيها بالشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ أبي الفضل الجيزاوي وغيرهم [2] .

رابعا: شيوخه: هم كثيرون منهم:

1- الشيخ حمدان الونيسي: الذي يعتبر أول مشايخه حيث علّمه اللغة العربية وغيرها من العلوم داخل الوطن .

---

[1]- آثار ابن باديس، ج 2، ص: 138، وابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ص: 35 .

[2]- الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة، تأليف: عامر على العرابي، ص:31-35، وعبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، لمصطفى حميداتو، ص: 47- 49 .

يقول عنه ابن باديس: "وإني لأذكر ... وصية أوصاني بها، وعهداً عهد به إليَّ ... فقد أوصاني وشدّد عليَّ أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها، كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت" [1] .

2- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: الذي لازمه قرابة الثلاث سنوات، يقول ابن باديس في ذكر فضله عليه: "وإن أنسى فلا أنسى دروسًا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه فقد حبّبتني في الأدب والتفقّه في كلام العرب وبثت فيّ روحًا جديداً في فهم المنظوم والمنثور وأحيت مني الشّعور بعزّ العروبة والاعتزاز بها كما أعتزّ بالإسلام" [2] .

3- الشيخ محمد النخلي القيرواني: وهو أستاذ التفسير في جامع الزيتونة، تأثر ابن باديس به في كلمة نصحه بها تتعلق بالتفسير، فقال عنه ابن باديس: "وذلك أنني كنت متبرّماً بأساليب المفسّرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدليّة واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ... فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرّم والقلق فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقّدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح، فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها" [3] .

4- الشيخ البشير صفر: وكان من أبرز علماء تونس، يقول عنه ابن باديس: "وأنا شخصيًا أصرّح بأن كراريس البشير صفر، الصغيرة الحجم، الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في اطّلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جنديًا من جنود الجزائر" [4] .

---

[1]- آثار ابن باديس، ج1، ص: 78 .

[2]- المرجع نفسه، ج:3، ص: 75 .

[3]- المرجع نفسه، ج2، ص: 140 .

[4]- المرجع نفسه ، ج:4، ص: 327 .

سادسا: آثاره العلمية:

آثار ابن باديس كثيرة، منها ما ألّفه ككتاب مستقل، ومنها ما جمع له بعد أن كان مفرقا، ونذكر من ذلك ما يلي:

1 – تفسيره: الذي نشره الأستاذان: محمد الصالح وتوفيق محمد، نقلاً عن (مجالس التذكير)، طبع سنة 1948م .

2– مجالس التذكير من حديث البشير النذير: وقد طبعته وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، سنة 1983م.

3– العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: وهي عبارة عن دروس كان يمليها على تلاميذه، في أصول العقائد الإسلامية وأدلتها من القرآن والسنة النبوية، جمعها وعلق عليها تلميذه الأستاذ محمد الصالح رمضان .

4– رجال السلف ونساؤه: وهي مجموعة من المقالات ترجم فيها ابن باديس لبعض الصحابة رضوان الله عليهم، وبيّن بعض صفاتهم وأعمالهم، ونشر تلك التراجم في مجلة (الشهاب) .

5– حقق كتاب: العواصم من القواصم: للإمام ابن العربي، وقدّم له وطبعه سنة 1928م، في جزأين بمطابع الشهاب.

وقد قامت وزارة الشؤون الدينية في الجزائر بجمع كثير ممّا حوته صحافة الجمعية من نشاطات الإمام عبد الحميد بن باديس في المجالات المختلفة وطبعته تحت عنوان: (آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)[1].

وفاته:

انتقل للرفيق الأعلى مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول 1359هـ الموافق لـ: 16 أفريل 1940م فتحركت قسنطينة بأكملها لتشييع جنازته، ودفن في روضة أسرته بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة .

---

[1]- آثار ابن باديس، ج: 1، ص: 98، والخطاب الدعوي عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تأليف: شهرة شفري ص: 110–111 .

قيل: في وفاته إنه مات مسموما، وقيل: مات إثر سرطان الأمعاء الذي أصيب به – فرحمه الله رحمة واسعة – [1] .

المطلب الثاني: تعريف بتفسير الإمام ابن باديس :

أولا: اسمه: اسم هذا التفسير الجليل هو: "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

ثانيا: تعريف عام بهذا التفسير: هذا التفسير هو عبارة عن دروس كان يلقيها الشيخ ابن باديس، في مسجد الجامع الأخضر بقسنطينة، و لم يكتبه الشيخ بخط يده بل كان يلقيه ارتجالا لأنه رأى ذلك أكثر تأثيرا في النفوس، لذلك ضاع أكثره لأن تلاميذه لم يدونوه و لم يبق منه إلاّ تفسير لبعض الآيات من سور متفرقات، بالإضافة إلى تفسير المعوّذتين الذي كتبه الشيخ بنفسه كتصدير لمجلة الشهاب، وفي ذلك يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير و لم يكتب تلامذته الكثيرون شيئًا منها، وضاع على الأمة كنز علم لا يُقَوَّمُ بمال، ولا يعوض بحال، ومات فمات علم التفسير وماتت طريقة ابن باديس في التفسير، ولكن الله تعالى أبى إلّا أن يذيع فضله وعلمه، فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة الشهاب ويسمّيها مجالس التذكير"[2] .

ثالثا: مدة إلقائه وحفل اختتامه:

كان الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة بمثابة جامعة معاصرة، مدرّسها الإمام عبد الحميد بن باديس، حيث كان يلقي أكثر من عشرة دروس في اليوم، من بعد صلاة الصبح إلى ما بعد صلاة العشاء، كلّ يوم ماعدا الخميس والجمعة، واختار ابن باديس أن يكون درس التفسير بعد صلاة العشاء، ليحضره أكبر عدد ممكن من المستمعين لأن غالبهم يكون متفرّغا في هذا الوقت، فكان يحضر درسه هذا جمّ غفير يعجّ بهم المسجد، وكان يستغرق حوالي ساعة في الدرس الواحد، واستمر على ذلك مدة خمس وعشرين

[1]- المرجع نفسه ، ج: 1، ص:95، والإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة، ص: 40 .

[2]- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع: الدكتور: أحمد طالب الإبراهيمي ج: 2، ص: 253 .

سنة إلى أن اختتم فيها القرآن كلّه . هذا الحدث الذي هزّ الجزائر كلّها فتوافد على مدينة قسنطينة العلماء وطلاب العلم وعوام الناس من كلّ أنحاء الوطن، وأقيم لذلك احتفال كبير دام مدة ثلاثة أيام [1]، يصف لنا الشيخ البشير الإبراهيمي ذلك فيقول: " أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسًا على الطريقة السلفية، وكان إكماله إيّاه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر. وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كلّه، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درسًا، ولما عاق حواريه الإمام رشيد رضا عن إتمامه كتابه . إن إكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة في مدة تساوي- بعد حذف الفترات- المدة التي كمل الله نزوله فيها، يعد في نظر المتوسمين إيذانًا من الله برجوع دولة القرآن إلى الوجود، وتمكين سلطانه في الأرض، وطلوع شمسه من جديد، وظهور المعجزة المحمدية كرة أخرى في هذا الكون. ثم كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة في الثالث عشر من ربيع الثاني عام 1357 دليلًا على انسياق الأمّة الجزائرية المسلمة إلى القرآن واستجابتها لداعي القرآن واجتماع قلوبها على القرآن وشعورها بلزوم الرجوع إلى هداية القرآن"[2] .

خامسا: أهداف ابن باديس من تفسيره:

سعى الإمام ابن باديس من وراء تفسيره إلى تحقيق أهداف معينة أملتها عليه ظروف المجتمع الذي يخاطبه والأزمة التي يمر بها بلده، وقد تمثلت هذه الأهداف فيما يلي:

1- العمل على إشعار المجتمع بأن القرآن هو المخرج الذي يوصل الأمة إلى برّ الأمان، وأن الرجوع إليه وترك هجره هو الدواء لعلاج الأمراض الواقعة في الأمة، يقول ابن باديس: "فإذا أردت أن ترقى في درجات الكمال، وتظفر بأنواع الإنعام وتزكي

[1]- المرجع نفسه، ص:89 .

[2]- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج: 1، ص: 318 .

نفسك الزّكاء التّام، فعليك بهدى هذا الفرقان، فهو بساط القدس، ومعراج الكمال، ومائدة الإكرام" [1] .

2- الطريق إلى فهم القرآن لا يكون إلا بفهمه كما فهمه السلف وتطبيقه كتطبيقهم له، وفي ذلك يقول:" فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة" [2] .

3- تفسير القرآن تفسيرا جديدا على طريقة السلف، وذلك بمعالجة واقع الناس وتربية الشعب الجزائري على العمل به، وهذا لتظهر نماذج من الرجال كما ظهرت في الصدر الأول من الإسلام وفي ذلك يقول: "وإن القرآن الذي كوَّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوِّن رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه" [3] .

المطلب الثالث: مقدمة عامة حول مسألة "تنزيل الآيات الواقع":

أولا: بيان معنى "تنزيل الآيات على الواقع": هو محاولة المفسر ربط معنى الآية القرآنية بما يقابلها من الأحداث الواقعة في المجتمع زمن تفسيره لكتاب الله، وذلك للسير وفق التوجيهات الربّانيّة في القضية محلّ الدراسة .

ثانيا: أنواعه: ينقسم تنزيل المفسرين للآيات على واقعهم إلى نوعين:

الأول: **التصريح**: وهو أن يصرح المفسر بأن معنى الآية حاصل في زمانه، فيربط واقعه بمعنى الآية صراحة كأن يقول " كما هو حاصل في زماننا" أو غير ذلك من العبارات المصرحة بهذا المعنى .

الثاني: **التلميح**: وهو أن يشير المفسر إلى أن معنى الآية حاصل في زمنه دون أن يصرح بذلك، بل يورده على سبيل التعريض أو التلميح، والسبب هو الحالة السياسية التي تسود زمن المفسر فلا يتمكن من التصريح خشية الفتنة والأذى.

---

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تأليف: عبد الحميد بن باديس، ص: 154 .

[2]- آثار ابن باديس، ج: 3، ص: 132 .

[3]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 142 .

ثالثا: فوائد تنزيل الآيات على الواقع:

تعتبر قضية "تنزيل الآيات على الواقع" بالنسبة للمفسر من الأهمية بمكان، وذلك يتجلى من خلال ما يلي:

1 ــ توثيق أبرز الأحداث التاريخية في عصر المفسر .

2 ــ معرفة موقف المفسر من الأحداث التي كانت تدور في زمانه .

3 ــ تقريب معنى الآية من أذهان الناس حتى يفهموها فهما سليما لأنها مرتبطة بواقعهم .

4 ــ ربط المسلم بكتاب الله تعالى، والسير وفق التوجيهات الربانيّة في القضايا التي تدور في حياته للوصول إلى بر الأمان في الدنيا والآخرة .

5 ــ التعرف على طرف من سيرة المفسر، وذلك من خلال نثره لشيء من مذكراته الشخصية، وبعض المواقف التي حدثت له، محاولا ربطها بمعاني كتاب الله تعالى[1] .

رابعا: أهم الضوابط التي يجب مراعاتها في تنزيل الآيات على الواقع ليكون التنزيل صحيحا:

هناك عدة ضوابط ينبغي للمفسر أن يراعيها إذا أراد ربط معنى الآية بواقعه ربطا صحيحا، وإلا فسر الآية بغير معناها، ومن هذه الضوابط:

1 ــ سلامة المقصد في تنزيل الآية: وذلك بالتجرّد عن العصبية المذهبية عقدية كانت أو فقهية أو سياسية، فإذا لم يتّصف المفسر بذلك وحاول ربط الآية بواقعه لنصرة مذهبه المنتمي إليه، فإنه يقع في التخبّط ويحاول أن يتكلّف معاني بعيدة عن مقصود الآيات لينصر بها مذهبه فيقع حينئذ في الخطأ والزّلل .

2 ــ مراعاة معنى سبب نزول الآية: لأن سبب النزول هو المعين على فهم معنى الآية ومن ثَمَّ يقدر المفسر على تصوّر معناها واستحضار الأحداث والمواقف المشابهة لها مما يدور في زمانه، فإن لم يراع المفسر سبب النزول فإنه يقع في الخطأ .

---

[1]- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين –دراسة وتطبيق–، عبد العزيز الضامر، ص: 71–82 .

3 ــ معرفة السياق الذي وردت فيه الآية: لأن مراعاة السياق الذي وردت فيه الآية وسباقها ولحاقها، مما يعين المفسر على فهم المعنى الصحيح للآية ومن ثم القدرة على ربطها بالواقع، فمثلا إذا كانت الآية في سياق الحديث عن مشاهد يوم القيامة وأهواله، فإنه لا يصح أن تنزل على أحوال الدنيا لما بينهما من الفوارق .

4 ــ أن يكون المفسر متبصّرا بأحوال الواقع المعاصر له: وذلك ليتمكّن من ربط الآية بواقعه وتصوير القضية تصويرا صحيحا ثم معالجتها في ضوء التوجيهات الربانية، أما إذا لم يكن متصوّرا لما يدور حوله من قضايا وأحداث أو يكون تصوره لها قاصرا، فإن تنزيله للآية يكون قاصرا كفهمه .

5 ــ أن يكون التنزيل مندرجا تحت أصل الآية: فلا يجنح المفسّر إلى تفسير الآية تفسيرا معاصرا مستقلا بذاته دون الرجوع إلى معنى الآية الذي بيّنه النبي ﷺ والصحابة والتابعون، ويدّعي أن ما حدث في الواقع المعاصر هو الذي ينبغي أن تنزل عليه الآية دون غيره، وقد يذمّ تفاسير السلف وينعتها بالقِصَر، كما يحتاج المفسر لتحقيق ها الضابط إلى معرفة اللسان العربي الذي نزل به القرآن معرفة واسعة صحيحة[1] .

المبحث الثاني: تنزيل الآيات على الواقع في تفسير ابن باديس .

إن الظروف التي كانت تمرّ بها الجزائر في عهد ابن باديس من استعمار فرنسي وسيطرة الطرقية ومشايخ الصوفية على المجتمع وغيرها من الظروف، أرّقت الإمام بن باديس وجعلته يحاول معالجة هذه القضايا مستغلا بذلك درسه الذي كان يلقيه في تفسير القرآن الكريم، حيث كان لا يمرّ بآية لها علاقة بواقعه وظروف مجتمعه إلاّ وبحث عن وجه الربط بين الآية وواقعه لاستخراج العلاج منها، وكان قبل أن يتزّل الآية على الواقع يصدّرها بقوله: "تنزيل" أو "تطبيق" أو "تحذير وإرشاد" أو غيرها من العبارات التي توحي بأنّه يعالج مجتمعه من خلال القرآن الكريم[2]، وليشدّ انتباه السامع لدرسه، يقول ابن

---

[1]- المرجع السابق، ص89-98 .

[2]- ينظر كتاب: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، لمعرفة منهجه في ذلك بالتفصيل، ص: 169-177 .

باديس منبّها على هذه القضية: "أن نقرأ القرآن ونتفهّمه، حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا، لنطبّق آياته على أحوالنا، ونتزّلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع، فإذا حدث مرض قلبيّ أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبّقناه عليه. وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض، طلبنا فيه الرد والإبطال. وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حدّ يمكننا "[1]. لذلك فقد جاء تفسير "مجالس التذكير" حافلا بالمواضع التي علاج فيها ابن باديس أمراض مجتمعه من خلال العلاج الذي يصفه القرآن الكريم . وبعد تتبّعي لتلك المواضع في تفسيره أمكنني تقسيمها إلى مطلبين هما:

المطلب الأول: تنزيل الآيات على العقائد والسّلوكات المنحرفة:

والمقصود من هذا المطلب هو جمع المواضع التي نزّل فيها ابن باديس الآيات القرآنية على بعض العقائد المنحرفة والسلوكات المخالفة للشّرع ممّا شاع في مجتمعه أثناء تفسيره للقرآن، وتفصيل ذلك كما يلي:

أولا: تحدثه عن حال الجزائريين وغيرهم في زمانه، من لجوئهم لأضرحة الموتى ودعائهم وعبادتهم إيّاهم .

فالمجتمع الجزائري في عهد الإمام ابن باديس شاعت فيه الخرافات والبدع بكلّ أنواعها؛ من عبادة القبور ودعاء الصالحين واللّجوء إليهم عند الكربات وغير ذلك، وهذا كلّه بسبب الاستعمار الفرنسي، فما كان من ابن باديس المصلح إلا أن حاول إصلاح عقيدة إخوانه الجزائريين وغيرهم، وذلك بإيجاد العلاج المناسب من خلال القرآن الكريم، لأن للقرآن عظمة في القلوب، فلما أن جاء إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الإسراء: ٥٦. وجد فيها العلاج والدواء، فقال: "إذا علمت هذه الأحكام، فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامّتنا غارقاً في هذا

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص: 181 .

الضلال، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النّسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك ممّا يسألون. ويذهبون إلى الأضرحة التي شيّدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها، ويدقّون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميّتهم، بأنّهم خدّامهم وأتباعهم، فكيف يتركونهم؟؟ وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس النذور. وتراهم هنالك في ذلّ وخشوع وتوجه، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم!! فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجّههم كلّها عبادة لأولئك المدعوّين، وإن لم يعتقدوها عبادة؛ إذ العبرة باعتبار الشّرع، لا باعتبارهم. فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً، حتى أصبحنا في هذه الحالة السيّئة من الضلال"[1] . وقد أوذي ابن باديس في ذلك أشدّ الإيذاء، فقوبل بالرفض والطعن من قبل متعصّبة عباد القبور ولكنه صبر واحتسب فنصره الله تعالى وكانت العاقبة للمتقين .

ثانيا: دفاعه عن الموتى من الصالحين الذين عبدهم أهل زمانهم، وأنهم برآء من ذلك ولا يرضون ما فُعِلَ لهم .

بعد بيان الإمام ابن باديس لبطلان عبادة الموتى ومنع اللّجوء إلى قبورهم لم يكتف بذلك، بل ذهب إلى الدفاع عن هؤلاء الموتى من الصالحين، وذلك لمّا فسر قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الإسراء: ٥٧ . فبيّن أنّهم لا يرضون ما يفعل عند قبورهم وهم برآء ممّن يفعل لهم ذلك، بل الإثم على الفاعل لا على المفعول به لأنه لم يدع و لم يرض بذلك، يقول – رحمه الله تعالى – : " نعرف كثيراً من الصالحين– رحمهم الله تعالى– قد شيّدت عليهم القباب، ونذرت لهم النذور، وقُصِدُوا لقضاء الحاجات، ودُعُوا في المهمات. وكان ذلك كلّه ممّا أحدثه المحدثون بعدهم، وبالغ فيه المستغلون له، ممّن ينتمون إليهم؛ فهم– إن شاء الله تعالى– برآء من إثم

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص: 119 .

ذلك كله، وإنّما إثمه على فاعليه"[1] ، وهذا البيان كلّه من ابن باديس لئلا يبقى لعباد القبور حجة ولا شبهة فيما يفعلونه .

ثالثا: قضية الإسراف والتبذير في الولائم والمآتم، التي شاعت في المجتمع الجزائري في عهد ابن باديس .

من القضايا التي استغل ابن باديس تفسيره للقرآن للنهي عنها وتحذير المجتمع منها، قضية الإسراف والتبذير أثناء الولائم والمآتم وغيرها من المناسبات التي تجمع الناس، وألحق بذلك ما شاع في بعض المجتمعات الجبليّة من تقديسهم لشيوخهم من أصحاب الطرق بإقامة الولائم لهم ولو بالاستدانة، واستغلال الشيوخ لهذه المكانة في أكل أموال الناس بالباطل وأخذ ما عندهم وما ليس عندهم، فحذّر من هذا كلّه ونهى الناس عنه، واستغلّ تفسيره لآية من القرآن تتعلّق بهذا الموضوع بالخصوص، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾ الفرقان: ٦٧ فقال: "**تطبيق:** حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولائم والمآتم لا تخلو من السّرف فيها، الذي يؤدّي إلى التّقتير من بعدها فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه، وأحاط به من ناحيتيه، والشرّ يجر إلى الشر، والإثم يهدي إلى مثله، وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علّق كثير ممّن سمعناهم يشكون هذه الحالة آمالهم في معالجتها، خصوصاً في المآتم. حقّق الله الأمال .

وثم نوع آخر موجود في غالب القطر، وبكثرة في بعض الجبال . وهو أنّ بعض المأمورين من شيوخ الطوائف، يأتون بثلّة من أتباعهم، فيتزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس، فيذبح لهم العناق إن كانت، ويستدين لشرائها إن لم تكن، ويفرغ المزاود، ويكنس لهم ما في البيت، ويصبح معدماً فقيراً مديناً، ويصبح من يومه صبيته يتضاغون، ويمسي أهل ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس، ويميتهم الشقاء ميتات متعدّدة في اليوم. وشرّ ما في هذا الشر أنه يرتكب باسم الدّين، ويحسبه الجهّال أنه قربة لرب العالمين: فأما

[1]- المرجع نفسه ، ص: 121 .

إذا جاء وقت شد الرّحال إلى الأحياء والأموات، وتقديم النذور والزيارات، فحدّث هنالك عن أنواع السّرف والكلفات، والتضييع للحقوق والواجبات" [1] .

رابعا: التحذير من البدع المحدثة في زمانه، خاصة من المنتسبين للإمام مالك لقبا لا عقيدة وعملا .

الإمام ابن باديس كان يعيش في الجزائر، ومن المعلوم أن المذهب الغالب في هذا البلد هو المذهب المالكي، وإمام هذا المذهب هو الإمام مالك بن أنس والذي يعتبر من أشد الناس تحذيرا من البدع، ومع ذلك فإن كثيرا من البدع شاعت بين أوساط المجتمع الجزائري في عهد ابن باديس، ولذلك فإنه لما فسّر قول الله تعالى:

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ النور: ٦٣ . استغل مضمون الآية وراح يحذّر أهل مجتمعه من البدع ويحثهم على الاقتداء بإمامهم وهو الإمام مالك، فيقول رحمه الله: " **تطبيق وتحذير**: من أبين المخالفة عن أمره وأقبحها الزيادة في العبادة التي تعبد لله بها على ما مضى من سنته فيها، وإحداث محدثات على وجه العبادة في مواطن مرت عليه و لم يتعبد بمثل ذلك المحدث فيها. وكلا هذين زيادة وإحداث وابتداع مذموم، يكون مرتكبه كمن يرى أنه اهتدى إلى طاعة لم يهتد إليها رسول الله ﷺ وسبق إلى فضيلة قصر رسول الله ﷺ عنها. وكفى بهذا وحده فتنة وبلاء، دع ما يجرّ إليه من بلايا أخرى. وقد طبق الإمام مالك ﷺ هذه الآية الكريمة على هؤلاء المتزيدين، أحسن تطبيق وأبلغه وأردعه، لمن كان له فهم وإيمان. روى الإمام ابن العربي- رحمه الله- بسنده المتصل إلى سفيان بن عيينة – رحمه الله –، "قال: سمعت مالك بن أنس- وأتاه رجل- فقال: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أحرم

[1]- المرجع نفسه ، ص: 218 .

من المسجد. فقال: لا تفعل. قال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة .

قال: وأي فتنة في هذا؛ إنما هي أميال أزيدها ؟ .

قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ ؟! إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ النور: ٦٣.

فليتأمل المسلمون – وخصوصاً المنتسبين إلى مذهب مالك– في فقه هذا الإمام العظيم، ووقوفه عند حدود الله، وليحذروا من عاقبة المتزيّدين المتغالين " [1] .

خامسا: تحذيره من بعض الألفاظ المخالفة للعقيدة الصحيحة التي شاعت على ألسنة الناس في عصره .

كان ابن باديس يسعى من خلال تفسيره لإصلاح مجتمعه وتطهيره من كلّ ما يخالف الشريعة الإسلامية، لذلك فقد تحدّث عن كلّ ما يخالفها ويقدح فيها، ومن ذلك أنه لمّا سمع بعض الألفاظ التي تعوّدت عليها ألسنة الناس وصاروا يتكلّمون بها مع أنّها مخالفة للشريعة كلفظ "يا ربي والشيخ" وغيره، نهى مجتمعه عن التّلفّظ بمثل هذه الكلمات وبيّن أنها شرك بالله تعالى، وذلك لما فسر قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ الفرقان: ٦٨، فقال: "**تحذير وإرشاد:** ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس "يا ربي والشيخ"، "يا ربي وناس ربي"، "يا ربي والناس الملاح". وهذا من دعاء غير الله، فإيّاك أيها المسلم وإيّاه، وادع الله ربّك وخالقك وحده وحده وحده، وأنفُ الشرك راغم " [2] .

---

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 338– 339 .

[2]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص: 222 .

سادسا: ظاهرة الانحناء المقارب للركوع لذوي السلطان التي شاعت في زمانه، والتي كثرا ما تنشرها الصحف .

ممّا شاع في زمان الإمام ابن باديس ظاهرة الانحناء للسلاطين والمسؤولين، وكانت الصحف التي تنشر في زمانه كثيرا ما تنقل صورا من هذا النوع، الأمر الذي لم يفوّته ابن باديس بل حذّر منه ونهى عنه، فعنون له بقوله: تحذير ، وذلك لمّا فسر قوله تعالى: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ النمل: ٢٥، فقال: " **تحذير**: كثيراً ما رأينا في الرّسوم التي تنشرها الصحف أناساً من المسلمين راكعين، أو مقاربين للسجود لذي سلطان. فعلى المسلم أن يحذر من ذلك فلا يفعله، ولا ينحني لأحد من الخلق، وأن ينكره إذا رآه "[1].

سابعا: تحذير القرّاء من دعاء غير الله، وحثهم على خدمة الإسلام وتعليم الناس ولو تدريجيا .

وذلك أنه انتشر في زمن ابن باديس كثيرا من القرّاء الذين ليس لهم حظّ من القرآن إلاّ تلاوته دون فقه ولا معرفة بالأحكام الشرعية، لذلك كانوا يفعلون أفعالا تخالف الشرع، كدعاء غير الله وغيرها، فحذّر ابن باديس هؤلاء القرّاء من ذلك، وحثّهم على أداء الأمانة على وجهها وخدمة الإسلام والمسلمين وذلك بتعليم الناس العقيدة الصحيحة ولو سلكوا في ذلك أسلوب التدرّج، وهذا كلّه لما فسر قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ الفلق: ٤ فقال: "**تحذير وإرشاد:** فليحذر قرّاؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله، وليحذّروا غيرهم منه. ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين، بما استطاعوا، عسى أن يتنبه الغافل، ويتعلّم الجاهل، ويقلع الضالّون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج؛ وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم، وقاموا بفريضة النصح، وخدموا الإسلام والمسلمين[2].

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 276 .

[2]- المرجع نفسه ، ص: 119 .

المطلب الثاني: تنزيله الآيات على الواقع في قضايا مختلفة:

والمقصود بهذا المطلب هو بيان بعض القضايا المختلفة التي نزّل عليها ابن باديس الآيات القرآنية أثناء تفسيره، وهي قضايا لا تتعلّق بباب واحد بل تتفرّع على عدة أبواب، هي كما يلي:

أولا: تحسّره من هجر الأمة الإسلامية للقرآن الكريم وبيان أنواع ومظاهر هجرها له.

فالإمام ابن باديس لاحظ بأن الأمّة الإسلاميّة قد هجرت القرآن الكريم تلاوة وتدبّرا وعملا، واتّخذت هذا الكتاب العظيم وراءها ظهريا، فتحسّر من ذلك أشدّ التّحسّر وحاول إصلاح هذه الظّاهرة السيّئة وهذا الداء العضال الذي أصاب الأمّة، فلمّا أن جاء إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ الفرقان: ٣٠، بيّن الأمور الكليّة التي جاء بها القرآن وكيفية إعراض المسلمين عنه ولجوئهم إلى غيره، فقال: " ونحن – معشر المسلمين– قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل، وإن كنّا به مؤمنين:

1 – بسط القرآن عقائد الإيمان كلّها بأدلتها العقليّة القريبة القاطعة فهجرناها، وقلنا: تلك أدلة سمعيّة لا تحصّل اليقين، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقّدة، وإشكالاتها المتعددة، واصطلاحاتها المحدثة، ممّا يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة .

2 – وبيّن القرآن أصول الأحكام، وأمهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والاعتبار، مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام، فهجرنا، واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجرّدة بلا نظر، جافّة بلا حكمة، محجبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول إليها .

3 – وبين القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوئ الأخلاق ومضارها، وبيّن السبيل للتخلّي عن هذه والتحلّي بتلك، مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة بتدسيتها فهجرنا ذلك كله، ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا، واصطلاحات من اختراعاتنا، خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطُّع، وعن السنّة البيضاء

إلى الأحداث والبدع، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي، والتخيل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالها، والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها، ومعارضة هداية القرآن بها .

4 – وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ونبّهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة، لننظر ونستفيد ونعمل. فهجرنا ذلك كلّه إلى خريدة العجائب، وبدائع الزهور، والحوت والصخرة، وقرن الثور!... وعلّمنا القرآن أن النبي ﷺ هو المبيّن للناس ما نزّل إليهم من ربهم، وأنّ عليهم أن يأخذوا ما آتاهم، وينتهوا عما نهاهم عنه، فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن. فهجرناها كما هجرناه، وعاملناها بما عاملناه، حتى إنّه ليقلّ في المتصدرين للتدريس – من كبار العلماء في أكبر المعاهد– من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها، مطالعة، فضلاً عن غيرهم من أهل العلم، وفضلاً عن غيرها من كتب السنة وكم وكم وكم بين القرآن!!! وكم وكم وكم قابلناه بالصد والهجران!!!"[1] .

كما بين رحمه الله حال طلبة العلم المشتغلين بتفسير القرآن، وأنّهم هجروا تدبّر القرآن وتفهّمه بسبب انشغالهم، بعلوم الآلة التي أفنوا فيها أعمارهم دون مطالعة ولو تفسير صغير للقرآن الكريم، ثم أعطى مثالا عن حال جامع الزيتونة في زمانه فقال – رحمه الله –: "... ودعانا القرآن إلى تدبّره وتفهّمه والتفكّر في آياته ولا يتمّ ذلك إلاّ بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه. فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية، دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلاً، بل يصير مدرساً متصدراً و لم يفعل ذلك!

وفي جامع الزيتونة– عمّره الله تعالى– إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير، فإنه –ويا للمصيبة– يقع في خصومات لفظية، بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه، في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 173– 174 .

الخصومات أياماً أو شهوراً؛ فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلاّ قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير. وإنما قضى سنته في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات. كأن التفسير إنّما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية .

فهذا هجر آخر للقرآن، مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن!"[1].

ثانيا: قضية انقسام المسلمين إلى طائفتين متنازعتين كلّ منهما تدّعي أنّ الهداية في اتّباعها والالتزام بمنهجها .

إن قضية انقسام المسلمين وتفرّقهم إلى طوائف شتّى وأحزاب متفرّقة، من أكبر القضايا التي بذل فيها الدعاة المصلحون جهودهم، حيث اجتهدوا في بيان صفات الطائفة التي ينبغي للمسلم أن يكون منها، كما اجتهدوا في الرّدّ على الطوائف المنحرفة وبيان صفاتهم ليحذر المسلمون منهم، والإمام ابن باديس واحد من هؤلاء الدعاة المصلحين الذين سعوا إلى إرشاد الأمّة إلى برّ الأمان وطريق الصواب، فكان لزاما وحتما أن يتطرّق لهذه المسألة الكبيرة، فتطرّق لها بأسلوبه الخاص البديع، حيث قسّم الطوائف في العالم الإسلامي إلى طائفتين كبيرتين، وبيّن بعض صفات كلّ واحدة منهما واستدلّ على ذلك بآيات من القرآن الكريم، ثم ترك الحكم للمسلم البصير ليحكم أيّ الطائفتين أهدى من أختها، وقدم لذلك بقوله " تطبيق وتحاكم"، وذلك لّما فسّر قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ الفرقان: ١ – ٢، حيث قال – رحمه الله –: " **تطبيق وتحاكم**: في العالم الإسلامي كلّه اليوم طائفتان من المؤمنين، يتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير . ولكل منهما– في سلوكها للقيام بتلك الخطة– سبيل. وكلّ منهما تدّعي أنّها على الصواب، وأنّها الأحقّ

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص: 173 .

والأولى بنفع العباد. فرأينا أن نطبّق فصل الفرقان عليهما، وننظر: كيف يفرق ما بينهما ومن هي المصيبة أو المخطئة. وفي ضمن ذلك تحاكمهما إليه وفصل النزاع بينهما بحكمه . وإنّما اخترناهما للتطبيق والتمثيل، لخطر الخطة التي تنازعا عليها، وعظيم النفع والضرر الذي يحصل من خطأ المخطئ، وصواب المصيب بها؛ ولأن الهداية والنذارة والتذكير أمور لها أنزل القرآن، فتنازعهما عليها تنازع عليه. فأحق فصل أن نمثل به لنعلم فصله هو بين المتنازعين فيه. وها نحن نعرض بعض حال كلّ طائفة في قيامها بالخطة، ثم نسوق آيات القرآن، وننظر من أسعد الطائفتين بها:

الطائفة الأولى: يُذَكّرون من يدعونهم بغير القرآن بأحزاب وأوراد من وضعهم، لا مما ثبت عن النبي ﷺ إلاّ قليلاً. ولهم عليهم في أموالهم حق في أوقات من السنة معلومة.

والطائفة الثانية: يُذَكّرون الناس بالقرآن فيأمرونهم بقراءته وتدبّره، ويبيّنون لهم معانيه، ويحثّونهم على التمسك به والرجوع إليه. ويدعونهم إلى الأذكار النبوية الثابتة في الكتب الصحاح، لرجوعها إلى القرآن لحكم قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ الحشر: ٧ . ولا يطلبون عليهم في ذلك أجراً. والله تعالى يقول في الحال الأول: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾ ق: ٤٥. وغيرها من الآيات المتقدمة في هذا المجلس. ويقول تعالى في الحال الثاني لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الفرقان: ٥٧. ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ الشورى: ٢٣. ويقول في آية صريحة صراحة تامة في بيان من يجب أن يُتَّبَع من الدعاة: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ يس: ٢١. ومن هم المهتدون؛ هم المتبعون للنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٨. واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه في طريق دعوته الخلق إلى الله. وقد ثبت بالقرآن أنه كان

يدعو بالقرآن، ويذكر به، وأنه لا يسأل على ذلك أجراً . بان- والحمد لله- بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين، واتّضح طريق الحق في الدعوة والإرشاد لمن يريد سلوكه منهما. والله نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه والقوة والإخلاص في الصدع به والثبات عليه ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٧"[1] .

ثالثا: فتنة الأمة الإسلامية بالغربيّة في التطور الدنيوي، وفتنة الأمة الغربية بالإسلامية في عدم دخول الإسلام .

من القضايا التي تطرق إليها الإمام ابن باديس ونزّل عليها آيات القرآن الكريم؛ قضية: تأثر المسلمين بالمجتمع الغربي وافتتانهم بهم في التطور العلمي الذي توصلوا إليه، مع تخلف المسلمين في هذا الجانب، الأمر الذي كان فتنة للفريقين، حيث يرى ابن باديس بأن المسلمين في عصره افتتنوا بالمجتمع الغربي الكافر لما رأوا ما حقّقه من تطوّر علمي، فذهبوا إلى تقليده في كلّ شيء ولو كان قبيحا، وترك ما عليه المجتمع الإسلامي ولو كان جيّدا، فكان المجتمع الغربي فتنة لهم، وفي نفس الوقت صار المجتمع الإسلامي بدوره فتنة للمجتمع الغربي حيث وبسبب تخلّف المسلمين وضعفهم جعلوا المجتمع الغربي ينفر من الإسلام، بل ويعيبه لأنّ أهله متخلّفين ضعفاء ولو كان الإسلام دينا صحيحا لكان أهله أقوياء متبوعين لا تابعين فكانوا فتنة لهم من هذه الناحية . هذه المعاني كلّها بيّنها ابن باديس لما فسر قوله تعالى: "﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ الفرقان: ٢٠. فقال:" **تطبيق:** كما يفتن الفرد بالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة: من ذلك أننا- معشر الأمة الإسلامية- قد فتنّا بغيرنا من أمم الغرب، وفتنوا هم أيضاً بنا:

فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدّنيوية والأخروية ولكن حيثما كنا- إلاّ قليلاً- لسنا سعداء لا في مظاهر تديّننا، ولا في أحوال دنيانا .

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 155- 157 .

ففي الأولى: نأتي بما يبرأ منه الإسلام، ونصرح بأنه من صميمه.

وفي الثانية: ترانا في حالة من الجهل والفقر والذلّ والاستعباد يرثي لها الجماد.

قلّما يرانا الغربيّون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام، ويسخرون منه، إلاّ من نظر منهم بعين العلم والإنصاف، فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام. فكنا فتنة عظيمة عليهم، وحجاباً كثيفاً لهم عن الإسلام. فكنا- ويا للأسف- فتنة للقوم الظالمين .

وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة، وتقدّم علميّ وعمرانيّ، فننظر إلى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كلّ شيء، حتى معائبهم ومفاسدهم، ونزدري كلّ شيء عندنا حتى أعزّ عزيز. إلاّ من نظر بعين العلم فعرف أنّ كلّ ما عندهم من خير، هو عندنا في ديننا وتاريخنا، وأن ذلك هو الذي تقدّموا وسادوا به. وأنّ ما عندهم من شرّ هو شرّ على حقيقته، وأن ضرره فيهم هو ضرره، وأنّه لا يجوز أن يتابعوا عليه، فكانوا فتنة لنا حتى ينظر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر فتسلبه إدراكه فيغدو لا يفرق بين اللب والقشور[1] .

رابعا: رجوع الناس إلى الاهتداء بنور القرآن والسنة في عهد ابن باديس بعد الغفلة التي عرفها آباؤهم، وذلك بفضل الله ثم بفضل جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

يعتبر الإمام بن باديس من أوّل المؤسّسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتي كان من أكبر أهدافها: دعوة الناس إلى الرجوع لنور القرآن والسنة الصحيحة والاهتداء بهما، وبعد ظهور هذه الجمعية وبذل أصحابه لمجهودات جبّارة، بدأت ثمار هذه الدعوة تظهر على أرض الواقع، فبعد أن كان الناس لا يعرفون أبدا معنى الهداية بالقرآن والسنة، صار المجتمع المعاصر للجمعية لا يبحث عن الهداية إلاّ في القرآن والسنة، وزامن هذا التغيّر تفسير ابن باديس للقرآن الكريم فلم يفوّت الكلام عنه في تفسيره، بل تحدّث عن ذلك مُبَارِكًا له وذلك لما فسر قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص: 167- 168 .

﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ يس: ٢ – ٦. فقال: " **تطبيق**: كان الناس منذ زمن قريب لا يسمعون ولا يسمع منهم لفظ الاهتداء بهداية القرآن العظيم، والاقتداء بهدي الرسول الكريم ﷺ والسير بسيرة السلف الصالح، في النهوض بأعباء الدنيا والدين، وهم- إلاّ قليلاً- عن هذا غافلون .

أما اليوم بعد أن نهض العلماء المصلحون بواجبهم، ونشروا دعوة الحق في قومهم، فقد أصبح ذلك معروفاً عند أكثر الناس، وفي متناول الناس بجميع طبقاتهم. وإنّا لنرجو من فضل الله المزيد، ونشاهد ذلك والحمد لله كلّ يوم يزيد، فالحمد لله على ما علّم وألهم وبصر ويسّر، ونسأله دوام التوفيق والتسديد يا رب العالمين"[1].

خامسا: قضية خطباء الجمعة في زمانه، وما آل إليه حالهم من تنطّع في إلقاء الخطب، وعدم معالجة مواضيعها لواقع المسلمين وآفات المجتمع .

حيث ذمّ الإمام بن باديس حال خطباء الجمعة في زمانه، بسبب تنطّعهم في الخطب لأنّهم يلقونها بأساليب صعبة الفهم لاشتمالها على ألفاظ غامضة، بالإضافة إلى أن مواضيعها بعيدة عن واقع الناس لا تتحدّث عن أمراضهم ومشكلاتهم لتجد لها الحلول، زد على هذا كلّه أنها خطب تشتمل على أحاديث منكرة أو موضوعة؛ فحذر ابن باديس الخطباء من هذه الحال المزرية وحثّهم على استغلال خطبة الجمعة في المقصد الشرعي الذي وضعت له وهو: وعظ الناس وحثهم على العمل الصالح وإيجاد الحلول لمشكلاتهم بأسلوب يفهمه الجميع، وذلك لما فسر قوله تعالى:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ النحل: ١٢٥ فقال:" **تحذير**: أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدّة، مسجعة طويلة، من

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 298 .

مخلّفات الماضي، لا يراعى فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، تلقى بترتّم وتلحين، أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيراً ما تختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات .

هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية، سدّ بها أهلها باباً عظيماً من الخير فتحه الإسلام، وعطّلوا بها الوعظ والإرشاد وهو ركن عظيم من أركان الإسلام. فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفت خطيباً في الناس. وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون . ورحم الله أبا الحسن- كرم الله وجهه- فقد قال: "الفقيه كلّ الفقيه، من لم يقنّط الناس من رحمة الله، و لم يؤمّنهم من مكره، و لم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه" [1] .

سادسا: تحذيره من بعض التفسيرات المحرِّفة لمعاني ألفاظ للقرآن الكريم .

كما هو حال كلّ عصر من العصور فإنه يظهر بعض المدّعين للتفسير ممّن هم ليسوا أهلا لذلك، لأنّهم لا يمتلكون الأدوات التي تأهّلهم لتفسير كتاب الله تعالى، فيفسّرون بعض ألفاظ أو معاني القرآن الكريم بتفسيرات خاطئة بعيدة كلّ البعد عن الصواب، وهذا ما حدث في عصر ابن باديس، حيث ادّعى بعض المتأثّرين بالحضارة الغربية أن الكفّار هم من قصدوا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٥، لأن المقصود بهذه الآية الصالحون لتعمير الأرض، فلمّا عمّرها الغربيون وانتصروا في جميع ميادين الحياة الدنيا دلّ ذلك على أنّهم هم من قصدوا في الآية، لما سمع ابن باديس هذا التفسير الباطل المحرّف لمعاني القرآن لم يفوّته، بل ردّ عليه وبيّن بطلانه، والمعنى الصحيح للآية لّما فسرها فقال: **تحذير من تحريف:**

رأى بعض الناس المدنيّة الغربيّة المسيطرة اليوم على الأرض- وهي مدنيّة ماديّة في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان- فقالوا:

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص: 324 .

إنّ رجال هذه المدينة هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض، وزعموا أن المراد بـــ {الصالحون} في الآية: الصالحون لعمارة الأرض .

فيالله للقرآن، وللإنسان، من هذا التحريف السخيف!! كأنّ عمارة الأرض هي كل شيء؛ ولو ضلّت العقائد، وفسدت الأخلاق، واعوجّت الأعمال وساءت الأحوال، وعذّبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهدّدت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها.

هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المحرّف أن يطبّق عليها آية القرآن: كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان، وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأمّا الصالحون، فهو لفظ قرآني كما قدمناه، وقد شرف أهله بإضافتهم إلى الله في قوله {عبادي} فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلم عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين"[1].

الخاتمـــة:

بعد هذه الرحلة المتواضعة مع عصر الإمام بن باديس وتفسيره، نخلص إلى النتائج الآتية:

❶- الإمام بن باديس يعتبر الأب الرّوحي والمعلّم الأول للشعب الجزائري في زمانه .

❷-أن ابن باديس يعتبر مجدّد علم التفسير في الجزائر، وذلك نظرا لأسلوبه البديع وعبقريته الفذّة في استخراج معاني القرآن وتنزيلها على الواقع .

❸- تفسير ابن باديس يعتبر من التفاسير المعاصرة النادرة، التي جعلت القرآن الكريم كتابا حيا يعالج أمراض المجتمع الذي نزّلت عليه آياته .

❹-مسألة تنزيل الآيات على الواقع كانت من أهم مقاصد ابن باديس في تفسيره، لذلك جاء حافلا بها .

---

[1]- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 350– 349 .

❺-من أهم القضايا التي نزّل عليها ابن باديس آيات القرآن الكريم بكثرة، القضايا العقدية، حيث بيّن العقائد المنحرفة وصحّحها من خلال الآيات القرآنية .

❻-استطاع ابن باديس أن يصل إلى هدفه من تفسير القرآن، وإيجاد العلاج لكلّ آفات المجتمع .

قائمة المراجع:

1 – القرآن الكريم – مصحف المدينة المنورة – .

2 – آثار ابن باديس، المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس، المحقق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى، سنة: 1388 هـ – 1968 م .

3 – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، المؤلف: محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، سنة:1997م .

4 – الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة : الخامسة عشرة، سنة: 2002 م .

5 – الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، د: أحمد محمود الجزار، منشاة المعارف -الإسكندرية-، الطبعة الأولى، سنة: 1999م .

6 – الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث، المؤلف: د: عامر على العرابي، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، سنة: 1408هـ–1409هـ .

7 – تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين –دراسة وتطبيق–، عبد العزيز الضامر، ط:1، سنة: 1428هـ/2007م، بيروت .

8 – الخطاب الدعوي عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين –دراسة مقارنة بين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي–، تأليف: شهرة شفري، وهي مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، بجامعة الحاج لخضر –باتنة- كلية: العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم: أصول الدين، سنة: 2008 م–2009م .

9 – عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، المؤلف: مصطفى محمد حميداتو، نشر الكتاب ضمن سلسلة بعنوان: "كتاب الأمة" يصدرها مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، رقم: 57 .

10 – العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية رواية محمد الصالح رمضان، المؤلف: عبد الحميد بن باديس، دار الفتح، الشارقة، الطبعة الأولى، سنة: 1995م .

11 – في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس، حققه وعلق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1416هـ/ 1995م .

12– مجلة البيان، العدد الأول، سنة: 1406 هـ/ 1986م.

12 – تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق، المؤلف: د:عبد العزيز بن عبد الرحمان الضامر، الطبعة: الأولى، سنة: 1428 هـ/2007م .